

## المعيقات الميتودولوجية للبحث الأنثروبولوجي في الدراسات العربية.

## Methodological obstacles to anthropological research in Arab studies

مفتاح بن هدية\*، جامعة سطيف 2 (الجزائر)، meftah\_benhedia@yahoo.fr

محمد أمين هيشور، جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، mohamedlamine\_haichour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/ 17 تاريخ القبول: 2021/12/ 09 تاريخ النشر: 2021/12/ 31

## ملخص:

تعالج هذه الدراسة موضوع بالغ الأهمية، نود من خلاله إبراز أهم المعيقات الميتودولوجية المتعلقة بالبحث الأنثروبولوجي في الدراسات العلمية العربية، معرجين في هذا على بعض الأسس الجوهرية لتنوير الحقيقة، كتقديم قراءة حول معنى مفهوم الانثروبولوجيا، وأهمية البحث العلمي في الحقل الأنثروبولوجي، ومكانة هذا الأخير في الدراسات العربية، كما حاولنا معرفة ما اشتملتها الدراسات الأنثروبولوجية الغربية حول العالم العربي وذلك بإبراز بعض الدراسات الموضحة لذلك كما رصدنا بعض المعيقات كطبيعة الظاهرة المبحوثة، تنوعها، تعددها، خصوصيتها، التعميم، وصعوبات ابستمولوجية ذاتية تتعلق بشخصية الباحث وخصائصه النفسية والاجتماعية، والثقافية، الذاتية هذه العوائق حالت وأفشلت التنظير في البحث الأنثروبولوجي في العالم العربي رغم توافر بعض الشروط المواتية لمأسسة بحث علمي انثروبولوجي عربي مستقل.

**الكلمات المفتاحية:** المعيقات الميتودولوجية، البحث الأنثروبولوجي، الدراسات العربية؛ الدراسات الغربية

## abstract

This study addresses a very important topic, through which we wish to highlight the most important methodological obstacles related to anthropological research in Arab scientific studies, referring in this to some essential foundations to enlighten the truth, such as providing a reading on the meaning of the concept of anthropology the importance of scientific research in the anthropological field, and the position of the latter in Arab studies, as we tried to find out what was included in Western anthropological studies about the Arab world by highlighting some of the studies that explain this, and we also monitored some obstacles such as the nature of the phenomenon studied, its diversity, its multiplicity, its specificity, generalization, and the subjective epistemological difficulties related to the personality of the researcher and his psychological, social, cultural, and subjective characteristics. These obstacles have prevented and failed theorizing in anthropological research in the Arab world despite the availability of some favorable conditions for the institutionalization of an independent Arab scientific research.

**Keywords:** The Methodological Obstacles, Anthropological Research, Arabic Studies, Western studies.

\*مفتاح بن هدية

## مقدمة:

حتى تكتسب المعرفة صفة العلمية استلزم الأمر ارتكازها على قاعدة رصينة تسمى بالمنهج العلمي وخطواته البحثية الذي يمنح هذه الصفة، ولا يحدث ذلك إلا إذا تربعت المعارف على مجموعة من الشروط و المبادئ المهيئة لعلمية تلك الفروع المعرفية، ويأتي ضمن هذا السياق علم الأنثروبولوجيا بوصفه حقل معرفي، وقد اتفق المتخصصون في العلوم على أنها (الأنثروبولوجيا)، أضحت علما قائما بذاته منذ زمن ماض، باعتبارها فرع من فروع العلوم الإنسانية و الاجتماعية تختص بدراسة الإنسان من جوانب عدة التي من شأنها تمييز بتحليلاتها و تفسيراتها للظواهر الإنسانية والوقائع الراهنة بالاعتماد على منهج علمي حتى أُصطلح عليها بالعلم الأنثروبولوجي، لذا نود في هذه الدراسة أن نفسر هذه العلمية المتشعبة بهذا العلم من خلال الحديث عن المنهج المتبع في الدراسة الأنثروبولوجية، والمجالات التي يسلكها الباحث الأنثروبولوجي و جملة من الأدوات البحثية، وفي الوقت نفسه نتساءل عن مجمل المعوقات المنهجية و الاستيمولوجية التي تقف عثرة تقدم الأنثروبولوجيا عامة و العربية خاصة بعد أزيد من نصف قرن من النشأة و البروز في الوطن العربي.

ومن الناحية النظرية، فقد ساهمت الأنثروبولوجيا من خلال عطائها المميز في ميدان المعرفة الإنسانية في خدمة الجماعات البشرية بأنواعها ووحداتها المتنوعة، ومن خلال ما قامت به من دراسات وأبحاث ميدانية لمجتمعات بدائية وحديثة، حيث تجاوزت النظرة الكلاسيكية التي حصرت نفسها سابقا في دراسة المجتمعات البدائية والقروية دون دراستها للمجتمعات الحديثة، إلا أن الاتجاهات الحديثة للأنثروبولوجيا عكفت على دراسة مجتمعات الحديثة من خلال توظيف المنهج الأنثروبولوجي في وحدات البناء الاجتماعي.

إن التطور المتعظم الذي ميز حقل الأنثروبولوجيا أدى بصورة مباشرة إلى مضاعفة الإنتاج الفكري والثقافي للمفكرين في أصقاع العالم، لهذا نجد الكتب والنشرية في تزايد مستمر، فهي غزيرة في أعمال الكتاب الذين ينتمون إلى طيف واسع من الانتماءات الأكاديمية.

## 2. حول مفهوم الأنثروبولوجيا:

نود الإشارة إلى نقطة مهمة وهي وجود عدد ليس بالهين للتعريف حول الأنثروبولوجيا، ولكن سنحاول أن نعرض بعض التعاريف التي نراها منطقية وتخدم توجه الدراسة ومنها :

✓ مصطلح أنثروبولوجيا هو مصطلح منحوت من الكلمتين "Anthropos" (أي إنسان) و "Logos" (أي علم)، ومن ثم فهو علم الإنسان، ويقصد إذن علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً، وتؤكد المدرسة البريطانية وجود فرعين على الأقل لهذا العلم هي الأنثروبولوجيا الطبيعية و الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تضم الأنثروبولوجيا الحضرية كفرع من فروعها، و الأنثروبولوجيا التطبيقية بالإضافة أنها تضم علم اللغات والأنثروبولوجيا حتى تكتسب المعرفة صفة العلمية استلزم الأمر ارتكازها على قاعدة رصينة تسمى بالمنهج العلمي وخطواته البحثية الذي يمنح هذه الصفة، ولا يحدث ذلك إلا إذا تربعت المعارف على مجموعة من الشروط و المبادئ المهيئة لعلمية تلك الفروع المعرفية، ويأتي ضمن هذا السياق علم الأنثروبولوجيا بوصفه حقل معرفي، وقد اتفق

المتخصصون في العلوم على أنها (الأنثروبولوجيا) أضحت علما قائما منذ زمن ماض، باعتبارها فرع من فروع العلوم الإنسانية و الاجتماعية تختص بدراسة الإنسان من جوانب عدة التي من شأنها تمييز بتحليلاتها و تفسيراتها للظواهر الإنسانية والوقائع الراهنة بالاعتماد على منهج علمي حتى أُصطلح عليها بالعلم الأنثروبولوجي، لذا نود في هذه الدراسة أن نفسر هذه العلمية المتشعبة بهذا العلم من خلال الحديث عن المنهج المتبع في الدراسة الأنثروبولوجية، والمجالات التي يسلكها الباحث الأنثروبولوجي و جملة من الأدوات البحثية، وفي الوقت نفسه نتساءل عن مجمل المعيقات المنهجية و الاستيعابية التي تقف عثرة تقدم الأنثروبولوجيا عامة و العربية خاصة بعد أزيد من نصف قرن من النشأة و البروز في الوطن العربي.

ومن الناحية النظرية، فقد ساهمت الأنثروبولوجيا من خلال عطائها المميز في ميدان المعرفة الإنسانية في خدمة الجماعات البشرية بأنواعها ووحداها المتنوعة، ومن خلال ما قامت به من دراسات وأبحاث ميدانية لمجتمعات بدائية وحديثة، حيث تجاوزت النظرة الكلاسيكية التي حصرت نفسها سابقا في دراسة المجتمعات البدائية والقروية دون دراستها للمجتمعات الحديثة، إلا أن الاتجاهات الحديثة للأنثروبولوجيا عكفت على دراسة مجتمعات الحديثة من خلال توظيف المنهج الأنثروبولوجي في وحدات البناء الاجتماعي. إن التطور المتعظم الذي ميز حقل الأنثروبولوجيا أدى بصورة مباشرة إلى مضاعفة الإنتاج الفكري والثقافي للمفكرين في أصقاع العالم، لهذا نجد الكتب والنشريات في تزايد مستمر، فهي غزيرة في أعمال الكتاب الذين ينتمون إلى طيف واسع من الانتماءات الأكاديمية (سليم، 1981، ص56)

✓ ويعرف ادوارد تايلور (e.tylor) الأنثروبولوجيا بأنها : تلك الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية، وبهذا المعنى، تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصصات التي تتعلق بالإنسان (البنداق، 2012، ص219).

✓ و تعني الأنثروبولوجيا دراسة الثقافات الأخرى، والاختلافات الثقافية، والأنظمة الاجتماعية، وأساليب الحياة، وأشكال المعرفة، وهذه الموضوعات تمنح إشارات عميقة محددة لأنظمة القرابة، والتراكيب العائلية، والمعتقدات الدينية، ووسائل العيش، والأنظمة السياسية. (البنداق، 2012، ص219).

✓ ويرى ليفي ستروس: " أن وظيفة الأنثروبولوجية هي دراسة البني الذهنية من خلال تجلياتها في المؤسسات الاجتماعية والأنساق الرمزية كاللغة والأساطير، ويعتبر أن هناك قواعد تتحكم في النشاط الذهني (الدهان، 2008، ص52)

✓ ويعرف Sanders Moore الأنثروبولوجيا بأنها : " دراسة الثقافات الأخرى، والاختلافات الثقافية، والأنظمة الاجتماعية، وأساليب الحياة، وأشكال المعرفة، وهذه الموضوعات تمنح إشارات عميقة محددة لأنظمة القرابة، والتركيب العائلية، والمعتقدات الدينية، ووسائل العيش، والأنظمة السياسية (دياب، دس، ص219)

✓ فهي علم يهتم بكل مظاهر النوع الإنساني، السلوك، واللغة، والمواقف، والقيم، والدولة، والقرابة، والتاريخ، وما قبل التاريخ، والفنون، والاقتصاد، والتقنية، والدين، والمرض، والوقاية، والملبس، والأكل.

✓ وقد كان دافيد هارت وهو عالم أنثروبولوجي أمريكي (1927-2001م) يفسر الأنثروبولوجيا كما يلي: الأنثروبولوجي الاجتماعي يدرس القوانين، والبنية الاجتماعية، وعلاقات القرابة، والأنظمة السياسية، ومفاهيم العدل والأخلاق، لأناس محددين، وكذلك التحول في حياتهم كأفراد، من قبيل الولادة والزواج والموت والطقوس المرافقة له، ويضيف هذا يحتم بالطبع العيش مع الأفراد الذين تدرسهم، وأن تتكلم لغتهم أو لهجتهم. (هارت، 2012، ص 176)

كما تحاول الأنثروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيائية، التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، وكذلك تلك المعايير التي تصلح للتمييز بين الأنواع العديدة داخل الأسرة البشرية نفسها وعليه فإن المعنى اللفظي والاصطلاحي للأنثروبولوجيا (anthropology) هو علم الإنسان (بن بريكة، دس، ص 350)

كما تعرف الأنثروبولوجيا عل أنها علم من العلوم الإنسانية يهتم بدراسة الإنسان من حيث قيمه (قيم جمالية، دينية، أخلاقية، اقتصادية وثقافية، واجتماعية) ومكتسباته الثقافية، بذلك تكون عل أنها علم يهتم بمعرفة الإنسان معرفة كلية وشمولية (تيلوين، دس، ص 20)

إذن المدلول الشائع و المتفق بين أغلب المتجهدين في حقل الأنثروبولوجيا و الإنسان، يقرر معنى الأنثروبولوجيا ينتهي إلى أنها علم يهتم بدراسة الإنسان من جوانب عدة أهمها: الجانب الثقافي، الاجتماعي، الحضاري، التاريخي... باختصار الأنثروبولوجيا علم يستقرا الإنسان وحضارته ومختلف ثقافته وأعماله وسلوكاته.

### 3. حول مفهوم البحث الأنثروبولوجي:

نقصد بالبحث الأنثروبولوجية أو الدراسة الأنثروبولوجية تلك الدراسات و الاجتهادات والمؤلفات التي ينجزها محترفون تخصصوا في علم الإنسان، وتدريبوا على العمل الميداني داخل ثقافات من قاموا بدراساتهم ومجتمعاتهم، وذلك ضمن برامج أكاديمية أشرفت على دراساتهم، نحن نكون بذلك استبعدنا عديد الدراسات التي قام بها رحالة وفضوليون كتبوا حول موضوعات ذات صلة بما تهتم به الأنثروبولوجيا، لكنهم لم التي يلزم « الأكاديمية » يلزموا أنفسهم بالشروط والمتطلبات المختصون أنفسهم بها وتشرف على تقيدهم بها الأكاديميات والاطروحات العلمية (قادر، رشيق، 2012، ص 35).

وكذلك نقصد بالدراسة الأنثروبولوجية تلك الدراسات التي تستخدم النظريات والمصطلحات العلمية أو الفنية وغالبا ما تندرج هذه « . العلمي » التي تميز بها هذا الحقل الدراسات التي سنشير إلى بعضها هنا ضمن المناقشات العلمية والنظريات السائدة، وكذلك الأسئلة والأطروحات التي تشغل اهتمام الدارسين في هذا المجال العلمي (قادر، رشيق، 2012، ص 36)

### 4. أهمية البحث العلمي في الحقل الأنثروبولوجي:

يسهم البحث العلمي الأنثروبولوجي في جودة حياة المجتمعات والتعامل بذكاء مع المتغيرات والتغيرات المختلفة في مناحي الحياة الاجتماعية للدول والمجتمعات، كما يعتبر أحد الأدوات الإستراتيجية في تحسين الظروف الحياتية، إذ يسهم في التغلب والتصدي للمشكلات المادية والاجتماعية المختلفة، علاوة على ذلك، فالبحث العلمي الأنثروبولوجي بمثابة بارومتر حقيقي لقياس تقدم المجتمعات

وتخلفها، فالطموحات الدولية لأي مجتمع لن ينكتب لها النجاح إلا بالمعرفة الأنثروبولوجية للآخر (البنداق، 2012، ص217-247) فمن خلال الثقافة وعلى حد تعبير "كلايد كلوكهون" تضع الأنثروبولوجيا أمام الإنسان مرآة تمنحه صورة أوضح لنفسه وأقرانه، وتساهم في نشأة المجتمع وطبيعة وظائفه ومنظوماته (البنداق، 2012، ص217-247).

ذلك أن الفكر الأنثروبولوجي كعلم له خصائصه وطرائقه، ازدهر في الغرب لإدراك أهميته الداخلية والخارجية، ولكن العرب كانوا أسبق من الغرب الأوروبيين في دراسة الثقافة الأخرى وصفاً ومقارنة، وفي وضع المبادئ والأسس المنهجية للبحث والدراسة في العلوم الاجتماعية والطبيعية.

إن معرفة الآخر من أهم القضايا الثقافية التي يهتم بها الأنثروبولوجيين، لذلك فهو دعامة أساسية للنهوض الاقتصادي والإفلاح الاجتماعي خاصة في المرحلة الراهنة التي تشهد منافسة حدة وقوية في جميع المجالات، ولهذا يمكن القول أن الدول المتقدمة قد جعلت من البحث العلمي الأنثروبولوجي في مقدمة أولوياتها، وركيزة اهتمامها في التخطيط المستقبلي، حيث أن السنوات القادمة ستشهد تسابق غير مسبوق في الإنتاج الثقافي والعلمي، والوقت كفيل بتصنيف الفضاءات والمراكز العلمية والجامعات من غير تلك المنتجة.

إن اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات الإنسانية كلها، وعلى المستويات الحضارية كافة، يعتبر منطلقاً أساسياً في فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأغراضها، ولكن على الرغم من التوسع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية، فما زالت الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا، ولا سيما وصف الثقافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية وآثار ما قبل التاريخ، تؤكد ولا شك، تفرد مجال الأنثروبولوجيا عما عداها من العلوم الأخرى، ولا سيما علم الاجتماع، ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأنثروبولوجية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية (البنداق، 2012، ص217-247).

عموماً، يمكن القول أن البحث العلمي الأنثروبولوجي في المؤسسة الجامعية إلى تنشيط آليات المعرفة وتفعيل القدرات، وإيجاد حلول للمشكلات، والارتقاء بالحياة الإنسانية وتحقيق التقدم الاجتماعي والإنعاش الاقتصادي.

## 5. الأنثروبولوجيا في العالم العربي: أية علاقة ؟

لم تنل الأنثروبولوجيا في الوطن العربي اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين العرب، على الرغم من أن هناك إمكانية كبيرة للأنثروبولوجيا الفكرية التي تهتم بدراسة أصول الأفكار وتطورها عند البشر، وينبغي تدريس الأنثروبولوجيا العربية في مختلف التخصصات العلمية، سواء الطب أو الهندسة أو في أقسام العلوم الإنسانية المختلفة، لأن المجتمع العربي يزخر بالتراث والثقافة والتاريخ والحضارة، الفكر الأنثروبولوجي بل الأنثروبولوجيا كعلم له خصوصيته وطرائقه، ازدهر في الغرب لإدراك أهميته في الحياة الداخلية والخارجية، ولكن العرب كانوا أسبق من الغرب (الأوروبيين) في دراسة الثقافات الأخرى، وصفاً ومقارنة، وفي وضع المبادئ والأسس المنهجية للبحث والدراسة في العلوم الاجتماعية والطبيعية (البنداق، 2012، ص227).

وإذا ما عدنا إلى الفترة الممتدة من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى نهاية القرن الحادي عشر، نجد أن العرب كانوا فعلى مدى أربعة قرون ونصف القرن " عباقرة العالم " في علوم الفلك والطب والاجتماع والفلسفة وغيرها، بينما كانت اللغة العربية هي اللغة الأساسية في العلوم الإنسانية، لكن هذه العلوم كلها ذهبت إلى الغرب بعد سقوط الدولة العربية (العباسية)، وتوالي الغزوات الإحتلالية والاستعمارية على الوطن العربي، إن الكتابة عن منطقة شمال إفريقيا بصورة عامة تكتسي أهمية قصوى من حيث إنها فتحت المجال أمام الباحثين الأنثروبولوجيين والاجتماعيين لرسم صورة عن مجتمعنا المغاربي بمعرفة ماضيه الاجتماعي والسياسي والثقافي، والوقوف على أبرز ما عرفته المنطقة من تحولات ميزت القرنين الماضيين (عمر أحمد البنداق، ص 227).

ولم تكن الأنثروبولوجيا محددة المعالم إلا في بدايات القرن العشرين، حيث أصبحت علما مستقلا بذاته، له موضوعه ومناهجه، وإطاره النظري الخاص به، وهي من العلوم الأكثر تجريدا، كما أنها علم تقني تطبيقي يلعب فيه التجريب دورا حاسما وذلك لارتباطه بالحياة اليومية العيانية، مما جعله يطور مناهج وتقنيات خاصة به، وأولى الوظيفة العلمية المتمثلة في إرساء أسس العلم والعمل على الرقي به، وتقديم فهم عميق للواقع الاجتماعي والثقافي، بالإضافة إلى الإسهام في رفع وعي الإنسان بنفسه ومجتمعه، ومحيط، العام والخاص .

وتعد الأنثروبولوجيا العربية إحدى الفروع العامة للأنثروبولوجيا، (والإنسان العربي له خصوصيته بوصفه كائنا يعيش ضمن منظومة اجتماعية وثقافية تتغير عن المنظومات المجتمعية الأخرى في العالم، وخاصة من الناحية الثقافية) وما هي إلا مجموعة أفكار وتصورات تحليلية لحياة الإنسان العربي من خلال الواقع الإنساني التاريخي ودراساتها متنوعة ومحدودة وهي علم يدرس الحياة التقليدية والحياة المعاصرة والحديثة.

غير أن تناول كل ما كتب عن الوطن العربي من المنظور الأنثروبولوجي يعتبر في الواقع غاية في الصعوبة لعدم الحصول على كل ما كتبه رواد الأنثروبولوجيا في كل قطر عربي، فقد خضعت مناطق من المغرب العربي مثلا إلى أبحاث إثنولوجية ذات نماذج نظرية مختلفة وبلغات مختلفة، والأمر يزداد تعقيدا عندما يتعلق بضرورة الوقوف على كل ما كتب باللغات الأجنبية عن المعرفة الأنثروبولوجية في بلدان المغرب العربي بوجه عام

لقد واجه علماء الأنثروبولوجيا العرب صعوبات في مقارنة ومقاربة ظواهر المجتمع العربي بما هو سائد في المجتمع الغربي لتكوينهم العلمي الغربي مما أدى إلى تحليل بعض الظواهر الاجتماعية بمنظور غير محلي وخاصة المتعلقة بالتحويلات البنيوية والحضرية في منطقة المغرب العربي.

ولم تنل الأنثروبولوجيا عند الباحثين العرب اهتماما كبيرا على الرغم من أهمية العمل الذي قام به ابن خلدون في مجال الأنثروبولوجيا، نظريا، يمكن القول أن دراسات وإسهامات: ابن خلدون، ابن بطوطة، الياقوت الحموي، ابن فضل الله العمري، النووي، البيروني، بمثابة كتب موسوعية بشؤون العمران، فقد تميزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة. والمعايشة والخبرة الشخصية، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية.

في هذا الباب يستدل بيرتي ج بلتو **perti.j.pelto** الذي ذكر مؤرخين ورحالة كبار أمثال: هيرودوتس (484-424م)، تاسيتوس (98 ب م)، ماركو بولو (1271-1295م)، ابن بطوطة، ابن خلدون (1332-1406م)، يقول: " أما ابن بطوطة (1304-1378م) أعظم رحالة عربي في العصور الوسطى فقد انطلق من موطنه في شمال إفريقيا إلى سلسلة من الأسفار إلى

روسيا و الصين و الهند وسومطرة وكمبوديا ثم غرب إفريقيا شبه الصحراوية ومن ضمنها تمبكت، وكان مجمل ما قطعه في أسفاره خلال الثمانية و العشرين عاما(28عام) يطوف على خمسة وسبعين ألف ميل(75000ميل)، ثم أملى روايته بأمر ملكي على محمد بن جزي، وتكشف رواية ابن بطوطة كثيرا من المعلومات عن الحكومات الإسلامية في زمانه وكذلك تفصيلات من الممارسات الدينية والثقافية ( ج بلتو، 2010، ص33-34)

و كان في الوقت نفسه عالم عربي آخر هو ابن خلدون يجمع معلومات و ملاحظات مثل: ماركوبولو و ابن بطوطة، بل يجب أن يعد عالما اجتماعيا عميق التفكير، وحاول بجزيرة الثرية في مختلف الحكومات الإسلامية إضافة إلى ملاحظاته و قراءاته الواسعة أن يؤسس دراسة المجتمع البشري في أشكاله المختلفة كافة، وطبيعة خصائص كل شكل من هذه الأشكال و القوانين التي تتحكم في تطوره، وإن بعض مبادئ ابن خلدون عصرية على نحو رائع على الرغم من أنها كتبت قبل خمسة مائة عام (ج بلتو، 2010، ص34)

ومن الناحية المنطقية يمكن القول أن الأنثروبولوجيا مازلت تعاني من التشتت وعدم إثبات هويتها وشرعيتها كعلم من العلوم الاجتماعية والإنسانية قائم بذاته، أما كتخصص يدرس في الجامعات، فحضوره منعدم كمادة موزعة بين تخصصات مختلفة، إن مساحات الدراسات الأنثروبولوجية محدودة جدا، بل ومنعدمة لارتباطها عند الذهنية العربية بالاستعمار، ولذا يجب النظر في مسألة الدراسات الأنثروبولوجية التي لا زالت تعاني من أزمة ومسببات الأزمة متعددة في المجتمع العربي كأزمة الثقافة والفكر، فالأنثروبولوجيا تعيش حالة أزمة التي تكمن في الأساس النظري والسياق التاريخي.

وبالرجوع إلى حالة البحث العلمي الأنثروبولوجي محليا، يمكن القول إن البحث العلمي الأنثروبولوجي في الجزائر توضح لنا أن إنتاج المعرفة الأنثروبولوجية في المجتمع الجزائري عموما وفي مراكز البحث العلمي خصوصا قد عرف تحولات وتغيرات عبر مراحل زمنية ، ففي البداية وأثناء الحقبة الكولونيالية نجد أن الأبحاث الأنثروبولوجية كانت مرتبطة عضويا بالمؤسسات الأم بفرنسا، واستمر هذا الوضع حتى عشية الاستقلال، حيث كانت منظومة البحث العلمي في الجزائر تابعة لفرنسا، كون الجامعة قبل سنة 1971 كانت عبارة عن هيكل مستورد لروحته من المتربول (دليمي، 2006، ص30) والبحث العلمي في الفترة الاستعمارية قد جند لنفسه منظومات فكرية عديدة لإنجاح المهمة الاستعمارية (زمام، ص48).

وهنا نذكر على سبيل الذكر أبحاث بيير بورديو الذي كان يقوم خلال فترة نضال الشعب الجزائري ضد السلطات الاستعمارية الفرنسية (1957-1962م) بعمله الإثنوغرافي بين سكان القبائل من بربر الجزائر، وكان نتاج كتابه الذي صدر عام 1962 بعنوان: "سوسيولوجيا الجزائر"، يعد هذا العمل من بواكير أعماله التي حققت له حضورا لافتا في العالم الأنغلو ساكسوني، وذلك بصفته أنثروبولوجيا، لقد مهد هذا المؤلف الإثنوغرافي في الطريق لعمله الأبرز الذي صدر بعد 10 أعوام ألا وهو موجز حول نظرية الممارسة 1972، ولعل هذين العملين بالإضافة إلى جزائر 1960 من بين الأعمال التي عززت مكانة بورديو كأنتروبولوجي بارز في النصف الثاني من القرن العشرين (يتيم، 2011، ص50) إضافة إلى أبحاث جاك بيرك.

وإذا كان الوطن العربي في حاجة ماسة إلى التقنية بكل أبعادها من أجل أن يظفر بمعركة المستقبل، فإنه بحاجة ماسة أن يفهم نفسه، وأن يتعرف على مشكلاته الداخلية والخارجية. إن الأبنية الاجتماعية بحاجة إلى فهم منهجي وإلى وعي علمي دقيق حتى تصبح مفهومة

ومدركة، وحسب اعتقادنا الشخصي فإن العلم الأنثروبولوجي هو أحد أهم هذه العلوم النظرية التي يحتاج إليها العالم العربي لمعرفة نفسه، فهو علم يقوم بتحليل الظروف الإيكولوجية والاجتماعية والثقافية والسياسية والقيمية.

نستنتج مما سبق وعلى الرغم من غنى العلوم في هذا التراث العربي، فإن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لم يلق الاهتمام في الدوائر العلمية والبحثية العربية، كما هي الحال في المؤسسات العلمية الغربية وباحثيها، سواء في البحوث الميدانية و التطبيقية، أو في الدراسات الأكاديمية، كالدراسات الفلسفية والنفسية والتربوية، وثمة بعض الباحثين (الأكاديميين) العرب يشيرون إلى أن الأنثروبولوجيا، دخلت إلى العالم العربي، في الثلاثينات من القرن العشرين تحت اسم "علم الاجتماع المقارن" وذلك على أيدي عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين، مثل : (إيفانز بريشارد - هو كارت - وبريستافلي) ، ممن تولّوا التدريس في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن )، ثم جاء بعدهم في الأربعينات، عميد الأنثروبولوجيين في ذلك الحين، الأستاذ "رادكليف براون" ، الذي قام بتدريس الأنثروبولوجيا في جامعة الإسكندرية، تحت اسم (علم الاجتماع المقارن) أيضاً، وذلك لعدم احتواء برامج التدريس الجامعي - في ذلك الحين - على مادة الأنثروبولوجيا.

## 6. الدراسات الأنثروبولوجية الغربية حول العالم العربي: نحو رؤية نقدية :

يقول المؤرخ العربي "جمال الدين الشيال": "انقلب الأوروبيون إلى ديارهم بعدما منوا بالهزيمة في الحروب الصليبية، وقد بهرتهم أنوار الحضارة العربية الإسلامية، وأخذوا مفاتيح تلك الحضارة، ففترغوا لها، يقتبسون من لآلئها وينقلون آثارها، ويدرسون توليفاتها، وقد ساعدتهم عوامل أخرى، جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية، على أن يسيروا بالحضارة في طورها الجديد، على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد، على التفكير الحر أولاً وعلى الملاحظة والتجربة والاستقراء ثانياً، فمهد هذا كله لهم السبيل إلى كشوف علمية جديدة شكّلت الطلائع لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين" (الشماس، 2004، ص169)

إن الكتابة عن منطقة شمال إفريقيا بصورة عامة تكتسي أهمية قصوى من حيث أنها فتحت المجال أمام الباحثين الأنثروبولوجيين والاجتماعيين لرسم صورة عن مجتمعاتنا المغاربي بمعرفة ماضيه الاجتماعي والسياسي والثقافي والوقوف على أبرز ما عرفته المنطقة من تحولات.

فلا أحد ينكر كيف نظرت الأنثروبولوجيا الاستعمارية للمجتمع والشعوب التي خضعت للبحث والدراسة، سواء كانت في آسيا أو أفريقيا، تحركها في ذلك النزعة المركزية الأوروبية التي ترى أن أوروبا التطور ومنطلق الحداثة والعصرية، وما المجتمعات الأخرى إلا مجتمعات تعيش التوحش لن تتصل إلى الآن من بدائيتها، والتدخل في هذه البلدان أو هذه المجتمعات هو الحل الأنسب والكفيل بإخراج هذه الشعوب من حالة التوحش إلى حالة المدنية.

يظهر أن النقد انطلق من أعماق الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية لما في هذه الدراسات من تحوير للمفاهيم، وقسر للمقولات والمصطلحات، وكان النقد موجه في الأساس لا إلى فكر البدايات، وإنما إلى استعمالات هذا الفكر وتوظيفه من قبل المدرسة الاستعمارية وخدمة لأغراضها المعادية لمصالح الشعوب وحققها في تقرير مصيرها.



وإذا كان تاريخ العلم الأنثروبولوجي لا ينكر على الإطلاق أن المدرسة الاستعمارية، وخاصة تلك الموجودة في ردهة من ردهات الخارجية البريطانية لعبت دورا مهما في تأسيس العلم الأنثروبولوجي، ومن ثمة تطويره، إلا أن بعض علماء هذا العلم كانت تتباهى برغبة في التحرر من هذه المدرسة حتى يظفر بالتقدم وخاصة المجتمعات الأقل تطورا وتقدما في أمريكا اللاتينية، وأسا وإفريقيا (دياب، دس، ص222)

إن الأخطاء الشائعة التي تضمنتها المدرسة الأنثروبولوجية وخضوعها التام لسياقات ميسرة جعلها تواجه السؤال الإشكالي الهام الذي تدخل في عمق الفكر الأنثروبولوجي وهو: أين يكمن الخلل في العلم الأنثروبولوجي؟ هل في الباحثين الأنثروبولوجيين أم في النسق المعرفي؟ أم في أسلوب توظيف العلم الأنثروبولوجي خلال دراسة المجتمعات غير الأوروبية؟ (دياب، دس، ص223)

والجواب واضح هو أن الفكر الأنثروبولوجي يحتاج إلى مزيد من المراجعة النقدية من أجل إغناء نسقه المعرفي بالمفاهيم والمصطلحات والأطروحات التي تجعله أكثر علمية ومنهجية وموضوعية مثل في ذلك العلوم الاجتماعية التي لم تصل حتى هذه اللحظة في دقة نسقه المعرفي وسلامته إلى مستوى العلوم الطبيعية والرياضية، الأمر الذي جعل العلم الأنثروبولوجي في كثير من دراساته لا يفهم الواقع المدروس فهما علميا ومنهجيا، وهذا ربما يعود في رأي بعض الباحثين إلى آليات التحليل الموجودة، وربما في حالات أخرى إلى أخلاقيات البحث العلمي (دياب، دس، ص223)، وأن تعلن الأنثروبولوجيا النقدية في مدرستها العربية أن زمن التعامل الأعمى مع التاريخ الاجتماعي - السياسي للعالم العربي بمفاهيم علم الاجتماع الغربي أو الماركسي والمنقاد في كثير من الأحيان كثيرة لمنطق الرغبة وإملاءات الولاء العقائدي أو القبلي قد مضى وأصبح في ذمة التاريخ، (وخاصة المدرسة الأنثروبولوجية التي نشأت في ظل الاستعمار وخدمته، وقدمت له المعلومات اللازمة حتى يتمكن من السيطرة على الشعوب المستعمرة وتحقيق مصالحه على حسابها وحساب مستقبله)، وأن التعامل مع الأحداث والوقائع والتي تجري في قلب الحياة العربية لا بد من أن تكون منقادة بمفاهيم وأطروحات ومقولات تستخلصها الأنثروبولوجيا من خلال قراءة واقعية وعلمية.

ويتوجب على العاملين في الحقل الأنثروبولوجي، سواء في الدراسات النظرية أو الحقلية الاعتماد على مشاهدتهم للظواهر داخل مجالها الجغرافي والبشري والزمني متأملين ومستفسرين ومحللين، ومتابعة ذلك بملاحظة الدقيقة للوقائع والأحداث.

واستمرت الحركة النقدية حيث أتت بالنقد على المدرسة البريطانية والأمريكية، وخاصة التوظيف الاستعماري للعلم الأنثروبولوجي، والمركزية الأوروبية، وتصبح الحاجة ملحة إلى صياغة إشكالية الأنثروبولوجيا في ما بعد الاستعمار، وتأسيس آراء جديدة تتسم بالنقد والطابع التحرري والمسؤولية الإنسانية، إلا أن المجتمع العربي والإسلامي حظي باهتمام في العقود الأخيرة بالعديد من الدراسات الأنثروبولوجية الرائدة، بل ولقد ساهمت هذه الدراسات وهذا الاهتمام العلمي بإضافات مهمة وجوهرية في تقدم علم الأنثروبولوجيا بعامة.

والأنثروبولوجيا - أو علم الإنسان - من العلوم ذات التاريخ الغربي الحديث، بل التي اقترنت رغم منجزاتها العلمية بسمعة سياسية سيئة وذلك لارتباط عدد كبير من العلماء المتخصصين فيها بإدارة الاستعمار أو على الأقل بمعونته، والدراسات الأنثروبولوجية وإن كانت قد تركزت في مراحل نموها العلمي في دراسة المجتمعات المعزولة والصغيرة ولم تبد اهتمامها بذكر المجتمعات التاريخية وبالذات الحضارية منها.

## 7. معوقات التنظير في البحث الأنثروبولوجي في العالم العربي:

لقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن الأزمة التي تمر بها العلوم الاجتماعية وخاصة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية في الغرب وفي الشرق، وأخيرا في العالم العربي، مما أثار ثائرة كثير من الباحثين في الفكر الاجتماعي، واختلفت ردود أفعالهم تجاه هذه العلوم والبحوث التي تجري في نطاقها، فاتسم بعضها بالتشكيك في موضوعية وعلمية بعض مناهج البحث المستخدمة في هذه العلوم الاجتماعية ومنها الأنثروبولوجية، فراحوا ينعتونها بالتحيز الأيديولوجي والبعد عن الموضوعية العلمية تارة، وعدم التزام أصحابها بقضايا الإنسان تارة أخرى، وظل قلة من الباحثين ينقبون عن كل ما من شأنه أن يبرر النيل من بعض المخالفين لآرائهم وأيديولوجياتهم واتجاهاتهم المنهجية بينما بلغ التشاؤم بالبعض الآخر إلى درجة التساؤل عما إذا كان وجود العلوم الاجتماعية ومنها الأنثروبولوجيا أمرا ضروريا لفهم الواقع، أم أنه بإمكاننا الاستغناء عنها نهائيا بمختلف تخصصاتها (أجعيم، 2010، ص323).

على أساس هذا يمكن القول أن كل علم وما ينجز في مجاله من بحوث تتحدد طبيعته وقيمه من خلال ثلاثة محركات أو مقومات، تمثل في موضوعه أو مجاله وما يرتبط به من طبيعة الظواهر والقضايا والمشكلات التي تشكله وتؤلف وحداته ومظاهره، وثانيا منهجه أو مناهجه وما تتميز به من خصائص ومدى صلاحيتها، لتحقيق نتائج معرفية وحلول عملية يمكن أن تكون أساسا ومصدرا حصبا لوضع معالم نظرية أو مدخلا تنظيريا يفيد في إجراء أية دراسة، وثالثا هدفه وما يتضمنه من فائدة علمية وقيمة مادية ومعنوية؛ وهنا لا يمكننا أن نتجاوز مسألة العلاقة الجدلية بين المنهج والمداخل النظرية عند إجراء أو تنفيذ كل بحث علمي في العلوم الاجتماعية، ومنها الأنثروبولوجية سواء الاجتماعية منها أو الثقافية أو الديمغرافية.. ذلك أنه كثيرا ما يتم الفصل التعسفي بين المنهج وأحيانا المناهج المتبعة في تنفيذ البحث الاجتماعي، وبين المدخل النظري الذي يؤسس للبحث أو الدراسة مما تنتج عنه اختلالات على أكثر من صعيد ومستوى: على مستوى المفاهيم أو الفرضيات أو الأدوات بل حتى على مستوى مجال الدراسة وقيمة النتائج المحققة (أجعيم، 2010، ص325).

ويواجه البحث العلمي الأنثروبولوجي صعوبات عديدة على المستوى التنظيري، والتي أثرت على مستوى الأبحاث العلمية المنجزة، فهناك مشكلات نظرية، أخرى منهجية وسنحاول في هذا العنصر التطرق إلى أهم الصعوبات النظرية والمنهجية الموجودة على مستوى هذا التخصص وهي:

✓ **مشكلات منهجية للبحث:** يجب على العمل الميداني الأنثروبولوجي أن يتخلص من نتائج التحيزات العاطفية لدى المراقب أو يقللها في الأقل (إحدى الطرق لتحقيق هذا الهدف جزئيا هي بواسطة فريق البحث ينفذ العمل الميداني في المجتمع نفسه عدة مراقبين و جهات نظر مختلفة)

✓ **الاختبارات السيكلولوجية و التقنيات الجديدة الأخرى الخالية من الحضارة تحتاج إلى استنباط لدراسة حضارية مقارنة للدوافع و المواقف و القيم و الذكاء و خصائص فردية أخرى، عمليا جميع الاختبارات و الوسائل المستعملة الآن، ابتكرت للاستعمال بين المتعلمين (من الطبقة الوسطى في الغالب) من المجتمع الغربي لذلك توجد مشكلات مهمة مشابهة لمشكلات الاختبار حتى في الجماعات الدنيا داخل الحضارة الأمريكية**

✓ تقنيات دراسة المجتمع وجها لوجه البسيطة نسبيا لدى الانثروبولوجي تحتاج إلى تعديل و تكملة لدراسة المجتمعات المتعددة الجماعات و ضمنها مجتمعاتنا، كما يعاني البحث الانثروبولوجي مشكلة العينات الوافية بالغرض وتمثيلها للمجتمع الكلي وبالتالي فغياب التمثيل يؤدي إلى تحريف الواقع الذي أنجته وسائل البحث و الافتراضات المصاغة.

✓ الفردانية، و اختلال النظام الاجتماعي، اختلال النظام الحضاري، التعاون، هيمنة الذكر، التأثير الحضاري، العولة وغيرها من العوامل يكون البحث الانثروبولوجي بحاجة ماسة شديدة إلى تعريفات عملية نقية، فيجب ابتكار وحدات قياسية للمراقبة و السلوك متساوية في إمكان تطبيقها في مدى واسع من الحضارات المختلفة، فكثيرا من تصنيفاتها الأولى للمراقبة (مثلا: المنزل الأبوي، شعائر الخصوبة، تعدد الآلهة، مجتمع الصيد، وجمع القوت) هي مواضيع شائكة و تحوي سلوك مختلط.

### ✓ طبيعة الظاهرة المدروسة:

إن الإطار النظري في علم الأنثروبولوجيا بقي يتأرجح ما بين التصورات والفلسفات المتباينة، ووجهات النظر المختلفة بين المدارس والنظريات الفكرية، نقطة هامة يود الباحث الإشارة إليها والتأكيد عليها وهي أن المنظورات أو النظريات الأنثروبولوجية لا تجد مساحات مشتركة واسعة، فالاختلاف النظري بين المدارس الفكرية راجع بالدرجة الأولى إلى أهمية وجهات النظر الشخصية التي ساعدت الباحثين إلى إظهارها على المعترك العلمي، هذا فضلا عن العوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التي ساهمت أيضا في إظهار هذا التخصص في الفضاءات العلمية، ومنه تستنتج أن غياب الإطار النظري الموحد والمشارك عند علماء الأنثروبولوجيا يرجع إلى طبيعة الاختلاف التصوري الشخصي للدلالات الثقافية والواقعية.

ومعنى هذا أن انكفاء البحث في علم الأنثروبولوجيا عن الواقع وإنجازاته قد ساهم في تعميق الأزمة المنهجية، ذلك أن التصورات الإيديولوجية قد طغت على المساحات العلمية، وهو ما فتح الأسباب والباب للخبرات الشخصية والذاتية والايديولوجية. عموما، يمكن القول بعد هذا العرض أن النظريات في علم الأنثروبولوجيا المعاصر تنطلق عادة من التأثيرات البيئية والسياسية التي يعيشها الباحث أولا، ومن وجهات نظر صاحبها ثانيا، وخبراته الشخصية ثالثا.

### ✓ المنهج العلمي في البحوث الأنثروبولوجية :

قد يختلف الباحثين ويختلف عليهم الأمر في اختيار المنهج الملائم، فيخطئون مرة ويحاولون مرة أخرى شأنهم شأن العلماء في العلوم الاجتماعية ( أحمد، ص 131-132)

ومنه يمكن القول أن هناك عوائق استيمولوجية تتعلق بطبيعة الظاهرة الأنثروبولوجية التي تتميز بعدم الثبات وكثرة التغير المستمر، لذلك يصبح اختيار المنهج الملائم أمر في غاية الصعوبة، ويطرح تساؤلات عديدة حول دقة النتائج وموضوعية البحث العلمي.

## ✓ أدوات جمع البيانات:

يتبع البحث الأنثروبولوجي في الإجابة عن التساؤلات الكبرى طرق عديدة للبحث عن الحقيقة، ولكي يصل الباحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف فإنه يتبع طرق عديدة في جمع المعلومات والبيانات منها (أحمد، ص132)، البحوث الوصفية والبحوث الارتباطية والبحوث التجريبية، فالبحوث الوصفية مثلا تتضمن الملاحظة الطبيعية، ودراسة الحالة، والدراسات المسحية، والبحوث التوثيقية، والملاحظة بالمشاركة بوصفها أداة مهمة في البحث الأنثروبولوجي لا يمكنها تفسير السلوك الملاحظ بسبب وجود عوامل كثيرة مهمة جدا في الموقف الطبيعي، فمن المستحيل الإجابة عن التساؤل بمجرد استخدام الملاحظة الطبيعية فقط، أما دراسة الحالة فلا يمكنها تحديد المتغيرات السببية للسلوك المدروس من ناحية، ولا يمكن الخروج منها بتعميمات من الفرد إلى المجتمع من ناحية أخرى، والدراسات المسحية التي تستخدم إما المقابلة الشخصية أو الاستمارة الورقية مرهونة بمدى رغبة المستجوب الإجابة عن بصدق ذاتي أو رغبة اجتماعية خالصة، خصوصا إذا علمنا أن المواضيع الشخصية الخاصة والحساسة التي يركز عليها علم الأنثروبولوجيا بالأساس هي من هذا القبيل، وبسبب محدودات أخلاقية ومهنية وواقعية، فإن الاستمارة أداة غير كافية لأنها تبعد إحصائيا نتائج البحث عن المصادقية والموضوعية، ويشير فيلدمان إلى أن الدراسات المسحية تعاني من عدة أزمات، فالناس لا يعطون أجوبة دقيقة، إما لعدم تذكرهم، وإما لعدم رغبتهم في معرفة الباحث فيرضونه بإجابات لا تدل على قناعاتهم، أو ربما يدلون بالعكس.

والتحيز التام، وما قيل عن البحوث الوصفية ينطبق على البحوث الارتباطية التي لا تستطيع أن تحدد بدقة العلاقة السببية بين المتغيرين لمرد وجود علاقة ارتباطية إحصائية بينهما، وعدم قدرة الارتباط على إخبارنا بعلاقة السبب بالنتيجة يعد عائقا حاسما لاستخدامه، ونفس الشيء يقال عن الدراسات التجريبية التي تبقى صعبة للغاية في مجال الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن جهته يرى الباحث طاهر أجغيم في دراسة موسومة بعنوان: "إشكالية المنهج وواقع البحث السوسيوأنثروبولوجي" أن هناك عوائق أو صعوبات أو إشكالية العوائق الاستمولوجية الموضوعية للبحث الاجتماعية والأنثروبولوجي ( طبيعة الظاهرة المبحوثة، تنوعها، تعددها، خصوصيتها، التعميم) وهناك صعوبات استمولوجية ذاتية تتعلق بشخصية الباحث وخصائصه النفسية والاجتماعية، والثقافية، واهتماماته وقدراته العلمية والفكرية، ويظهر ذلك بصورة أكثر وضوحا فيما يعرف بالنزعة الذاتية، ونقص الخبرة والممارسة في مجال تطبيق (أجغيم، 2010، ص327)، عوائق أو صعوبات إستيمولوجية ذاتية تتعلق بشخصية الباحث وخصائصه النفسية والثقافية واهتماماته وقدراته العلمية والفكرية، ويظهر ذلك بصورة أكثر وضوحا فيما يعرف بالنزعة الذاتية، ونقص الخبرة والممارسة في مجال تطبيق المنهج، ومدى تحلي الباحث بالصفات والخصال الأخلاقية من صبر وأمانة علمية وشجاعة في مواجهة معاناة البحث والروح العلمية التي تعتبر الموضوعية صميمها وجوهرها، إلى جانب التواضع والشعور بروح التعاون (أجغيم، 2010، ص327).

## 8. عوائق وصعوبات عملياتية:

يري الباحث عبد الرحيم العطري أن الدرس الأنثروبولوجي يستلزم نفسا عميق، وقبلا مزيدا من الصبر والأنانة، فالفكرة لا تأتي مطوعة مناسبة، إلا بتوفر قدر عال من المراس، خلاصات الدرس ذاته لا تأتي من بوابة النظر فقط، بل تنكتب في الميدان والتنزيل

الواقعي للمفهوم والممارسة، لهذا الباحث الأنثروبولوجي منذ الخطوة الأولى في هذه الصناعة المعرفية الثقيلة بتعبير الباحث المغربي نور الدين الزاهي ينتصر لصوت الميدان وينطلق نحو مصارعة التحديات التي تقع خارج حدود الإرادة (العطري، 2010، ص 149)

حسب اعتقادنا الشخصي فإن الكثير من المنشغلين بأمور الأنثروبولوجيا لم يعيشوا مع طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة ولو ستة أشهر، بمعنى أن ارتباطهم بأنثروبولوجيا وتعبير أدق تفاصيل الحياة الاجتماعية هو نظري بالأساس، وليس ارتباطا يمس المعيش اليومي والمعرفة القريبة، ويزداد الأمر كاريكاتورية عندما يرافقه هؤلاء الباحثين إلى المجتمع المبحوث ويصعب عليهم استيعاب مفردات لا يستطيعون إلى فهمها سبيلا، فيقومون بتحويل معانيها واستبدالها في مسوداتهم بكلمات مستقدمة من سجل ثقافي آخر.

وأصول الحرفة لن يكون بلوغها ممكنا دون النزول إلى الميدان، فالأمر يتعلق بصناعة معرفية ثقيلة لا تقبل المقاربات الكسولة والمتسرعة، وعليه سيجد الباحث نفسه مدعوا إلى استثمار تقنية الملاحظة بالمشاركة التي تطلبت في بعض الأحيان المكوث لأزيد من سنة أشهر في مجتمع الدراسة، وهو ما لا ينطبق على كثير من الباحثين المنشغلين بالعلم الذين يفضلون التنظير من أبراجهم العاجية.

إن البحث الأنثروبولوجي يتطلب من الباحث أن يعطي للدراسة معناها ومبناها المختلف، بالتقاط التفاصيل أولا وتفكيكها ثانيا، ثم محاولة موضعيتها وقراءتها أخيرا، بعيد عن أيه نزعة وثوقية أو اشرافية، فالتعميم أو الاختزال غير معمول بهما في أجندة الباحث المعرفية (العطري، 2010، ص 149-150)

في سياق هذا الاشتغال سنكتشف باحثا أنثروبولوجيا متفردا ومتعدد القراءات والانفتاحات غير مقتنع بجدوى الحدود المعرفية بين العلوم، فالباحث الجاد يستثمر في التاريخ والسوسيولوجيا وعلم النفس وغيرها من العلوم في قراءة الواقعة الإنسانية، كما يستعمل عدتها النظرية والمنهجية في تدبير أبحاثه ودراساته التي توزعت على مواضيع شتى.

بات من المؤكد أنه من غير المرجح أن يتمكن حقل معرفي يغالي في الاعتماد على متفرقات وتصنيفات تقريبية من أن يشعر بواقع حي، فالتمكن من ذات الواقع يتوجب امتشاق مسارات من الدرس والتحليل أكثر دقة وموضوعية، وقبل أكثر إنصاتا لصوت التجربة الإنسانية، كما هي في الواقع، لا كما تتخيلها في مكاتبنا المكيفة (العطري، 2010، ص 151)

وقد تحدث العالم دافيد هارت عن الصعوبات ومخاطر العمل الميداني، وهي مخاطر وصعوبات تهون أو تختفي حينما تحضر الإرادة التي توجه العمل، ومن ثمة وجوده في الميدان المعيش، كما تحدثت الباحثة أورسولا أن الدرس الأنثروبولوجي يقتضي من الباحث ألا يتميز من الجماعة التي يدرسها، بل عليه أن يتقرب منها أكثر، ويكسر الهوة والمسافة التي تفصل بينهما.

ومنه يستوجب على الباحث الأنثروبولوجي أن يمتلك قدرة هائلة على نسج علاقات قوية داخل الجماعة التي يدرسها، واستيعابه للأطر الفكرية الحاكمة لثقافة الأفراد مجتمع الدراسة، فيتصرف الباحث بحكم درايته بالمبحوثين كما لو كان واحدا من أفراد المجتمع ويتظاهر في معاملته معاملة تحاكي معطيات الثقافة الأصلية على الأقل في الوقت الذي يكون حاضرا معهم، بحكم إقامته الطويلة في الميدان، وبحكم دراساته وأبحاثه حول المنطقة يتحول إلى مهاري عارف بتفاصيل الحياة اليومية مدركا لجمال تدخلاته وحدوده.

كما يشترط على الباحث الأنثروبولوجي أن يتذكر في كل مرة مدى صعوبة العمل الميداني بما يعنيه من كد وتعب وغياب لوسائل الراحة الضرورية، مع التركيز على المهام المنتظرة من الباحث كالانتباه إلى التفاصيل الصغيرة، والدقة في ملاحظاته وتفسيراته، وعدم الانحياز إلى طرف من الأطراف التي يتعامل معها ميدانيا، وهنا أيضا ينبغي أن نسجل مسألة ذات أهمية بالنسبة إلى البحث الميداني، ففي

الوقت الذي يتوجه الباحث إلى دراسة جماعة بشرية ما، يتحول بدوره إلى موضوع مساءلة وبحث من قبل الجماعة، وهي مساءلة قد تضع الباحث في إحراج (هارت، 2012، ص179)

ملاحظة أخرى أيضا يجب الإشارة إليها وهي أنه في الميدان الباحث ليس حرا بل تحت رحمة الآخرين، فبقدر ما أن العمل الميداني يغري، يواجهه الباحث خلاله بصعوبات جمة، بحيث عليه أن يضفي النظام على اللانظام، أو عليه أن يتعود على النظام الذي يحكم مجالات ووضعيات لم يكن بالضرورة طرفا فاعلا فيها، إن الباحث هنا تحت رحمة غيره، فضلا عن الحاجز اللغوي الذي يتطلب جهدا جبارا لتداركه (هارت، 2012، ص180)

مشكلة ميدانية أيضا تواجه الباحث وتتمثل في الحياء الصعب والتعديل المستمر في المواقف، يجب على الباحث الأنثروبولوجي الحفاظ على الحياء ومحاوله فهم وتفهم مواقف وسلوكيات أي شخص مهما كان سلوكه ومواقفه مخالفة عوض محاكمة هذه المواقف، الباحث هنا أمام تحدي صعب يكمن في قبول الآخر كأخر، وهذا يتطلب صلابة ذهنية وتركيز عال تفاديا لمأزق التوقف عن إتمام العمل المحدد سابقا.

وترى عالمة "أورسولا" أن الأنثروبولوجيا ليست عملا، بل مهنة لها أسرارها، وأحد فروع المعرفة الإنسانية، ربما في لحظة ما يكون الباحث منغمسا في عمله، ولكن عندما يلاحظ أن متغيرا ما قد استجد يتخذ الباحث موقفا جديدا قد يجبره أحيانا كثيرة على التوقف عن عمله أو تأجيله، مراعاة لتقاليد ونواميس المنطقة والجماعة التي يشتغل فيها. (هارت، 2012، ص182)

كما تظهر احترافية الباحث الأنثروبولوجي في قدرته على التعلم والتعليم المستمرين، فالباحث لا يتصرف كما يحلو له، بل يتصرف كما يتصرف غيره من أفراد المجتمع المدروس. وعندما ينغمس الباحث في الحياة اليومية للمجتمع المدروس يصعب عليه أن يكون مغايرا، كما يصعب عليه أن يدون كل ما يدور حوله، مع العلم أنه يدرك أن الذاكرة لا يمكن أن تسجل كل شيء، أو تحتفظ بكل التفاصيل. غير أن صعوبات العمل الميداني لا تتعلق فقط بمقدرة الباحث على فهم الآخر واستيعاب ثقافته، بل تكمن الصعوبة كذلك في مدى قدرة الباحث على مسايرة الجماعة أعرافها، وطقوسها، وحياتها، بل مدى قدرته على تحمل كل ذلك، تحمل ثقافة جديدة ربما تختلف جذريا عن ثقافة وطريقة عيش الباحث (هارت، 2012، ص182-184)

وهكذا فالأنثروبولوجيا ليست مملة، إنها «المتعة الدراماتيكية» وكيفما كانت الصعوبات، نلمس أن الباحث الأنثروبولوجي يبذل مجهودات جبارة قصد تجاوز الإكراهات التي تواجهه تواجهه ضمن الجماعة، بل نجده في أكثر من موقف يجعل من هذه التجربة «متعة تستحق أن تعاش».

## 9. خاتمة

يظل الحديث عن البحث العلمي الأنثروبولوجي في العالم العربي عموماً و الجزائر خصوصاً حديثاً ذا أهمية خاصة يحتاج إلى نظام تقويمي مستمر، بما يضمن سير النشاط الفكري وفق منهجية علمية ومعقولة، وفي نطاق حاجات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وذلك لتأسيس أسباب الريادة، ولا يمكن إحداث نمو اقتصادي واجتماعي إلا باعتماد منهجية دقيقة وصارمة، توجه النشاط العلمي الأنثروبولوجي بما يتفق ومتطلبات التنمية في المجالات المختلفة، ويبقى واقع البحث العلمي الأنثروبولوجي في البيئة الأكاديمية العربية عامة والجامعة الجزائرية خاصة بحاجة إلى مزيد من «الدعم المادي والمعنوي».

## 10. قائمة المراجع:

- أبو بكر قادر، حسن رشيق، الأنثروبولوجيا في الوطن العربي (حوارات لقرن جديد)، ط01، دار الفكر، 2012.
- بن بريكة إبراهيم، المبادئ الكبرى للفكر الأنثروبولوجي، مجلة حقائق للدراسات النفسية والاجتماعية، ع07، جامعة الجلفة، الجزائر .
- بيري ج بلتو، دراسة الأنثروبولوجيا-المفهوم و التاريخ، ط01، ترجمة : كاظم سعد الدين، بيت الحكمة، بغداد، 2010.
- دافيد هارت: دروس في العمل الأنثروبولوجي الميداني : ترجمة : عبد الله هرهار، مجلة إضافات، مركز الدراسات الوحدة العربية، لبنان ، العدد 17-18، 2012 .
- شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ط01، جامعة الكويت ، مادة أنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، الكويت. 1981.
- طاهر أجغيم: إشكالية المنهج وواقع البحث السوسيوأنثروبولوجي، مجلة الباحث الاجتماعي ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 10، 2010.
- عبد الحميد دليمي، التعليم العالي في الجزائر وتحديات العولمة، مجلة دفاتر المخبر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد2، 2006.
- عبد الرحيم العطري: الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي مفكك خطاطة الشيخ والمريد ، مجلة إضافات، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت ،لبنان، العدد التاسع، 2010.
- عبد الله عبد الرحمن يتيم: بيبورديو أنثروبولوجيا، مجلة إضافات، مركز الدراسات الوحدة العربية ،بيرون ،لبنان، العدد الرابع، 2011.
- عزالدين دياب: من أجل مدرسة عربية في الأنثروبولوجيا النقدية، مجلة الفكر السياسي، دس
- عمر أحمد البنداق: واقع في الوطن العربي والأفاق المستقبلية، مجلة الجامعة المغاربية، المغرب، 2012.
- عيسى الشماس، مدخل الى علم الانسان - الانثروبولوجيا- منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.

- محمد الدهان: غسل ورماد، حول مثنوية ليفي ستروس، **مجلة إضافات**، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، العدد الثالث والرابع، 2008.
- مصطفى تيلوين، مدخل عام في الاثروبولوجيا، ط01، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، دس
- مظفر جواد أحمد: أخلاقيات البحث في العلوم السلوكية والاجتماعية، **مجلة البحوث النفسية**، مركز البحوث النفسية، العدد الثالث عشر، 2008.
- نور الدين زمام، الجامعة والبحث العلمي في ظل تقسيم العمل العلمي الراهن، **مجلة دفاتر المخبر**، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 2، 2006.